معالم في التربية والدعوة

مواعظ
الشيخ عبد القادر الجيلاني

(٤٧١ - ٥٦١ هـ)

قام بجمعها

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

عندما نتحدث عن الوعظ والوعاظ يبرز اسم «الشيخ عبد القادر الجيلاني» علماً شامخاً على مرِّ الأيام التي تلت زمنه، فَقَلَّ مسلم لم يسمع به.

فهو أحد المربين الكبار، والشيوخ الكبار، الذين لم يقتصر أثرهم على زمنهم بل امتد إلى الأجيال التي جاءت من بعدهم.

كان اتجاهه إلى الوعظ ـ وهو العالم الكبير ـ تلبية للحاجة الملحة وتطبيقاً لسلّم الأولويات.

فقد رأى أن مجتمعه لم يكن ينقصه الفقيه المتخصص، ولا الأصولي النظار، ولا النحوي العالم باللغة ـ وكان يتقن كل ذلك وغيره ـ وإنما يفتقد العالم الذي يقود عامة

الناس، فيخرج بهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الانغماس في الذنوب والآثام والمعاصي إلى التوبة والاستغفار والتزام الصراط السوي، ومن النظر إلى الخلق والاهتمام بهم إلى إخلاص العمل للخالق عزّ وجلّ. .

وجد الميدان خالياً، فرأى من واجبه أن يملأه، فقد تحول في حقه هذا الفرض الذي كان على الكفاية إلى فرض عين، فشمر عن ساعد الجد، وباشر العمل، وقد جمع الله عليه القلوب، وأصغى له الناس بأسماع قلوبهم. . فكان الخير الذي عمّ بغداد يومئذ وتجاوزها إلى غيرها.

وإني إذ أقدم باقات من مواعظه ـ لتنضم إلى مثيلاتها في سلسلة معالم في التربية والدعوة ـ لأرجو أن ينفع الله بها، كما نفع بها من قبل، وما زالت الكلمة الطيبة كشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

كما أرجوه ـ تعالى ـ أن ينفعني بها، وأن يجعل هذا العمل وسائر أعمالي خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

غرة ذي الحجة ١٤٢٢هـ
١٣/٢/٢٠٠٢م

كتبه
صالح أحمد الشامي

ترجمة الشيخ عبد القادر

هو عبد القادر ابن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني نسبة إلى جيل، وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان، وبها ولد، ويقال لها أيضاً: جيلان وكيلان[(١)].

كانت ولادته سنة (٤٧١هـ) كما في معظم تراجمه.

وقد توفي والده وهو صغير، فنشأ يتيماً، وقضى المرحلة الأولى من حياته مع والدته حيث ولد، فلما شب عزم على الذهاب إلى بغداد طلباً للعلم. . وقد وصل إليها سنة (٤٨٨هـ)، وهي السنة التي ترك فيها الإمام أبو حامد الغزالي التدريس في المدرسة النظامية في بغداد وآثر العزلة.

وكانت والدته قد زوّدته بأربعين ديناراً يستعين بها على معيشته. . ولكنها لم تصمد طويلاً. . وما عسى أن تغني في هذه الرحلة الطويلة.

---

(١) شذرات الذهب ٤/١٩٨.

وقد مرت عليه أيام عجاف عاش فيها في ضنك شديد، وقد تحدث عن بعض ذلك فقال:

«كنت أقتات الخرنوب والشوك والبقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت بي الضائقة في غلاءٍ نزل ببغداد، إلى أن بقيت أياماً لم آكل فيها طعاماً، بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها.

فخرجت يوماً من شدة الجوع إلى الشط لعلّي أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك فأتقوّت به، فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه، وإذا وجدت الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءً.

فرجعت أمشي وسط البلد، فلا أدرك منبوذاً إلا وقد سُبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد بسوق الريحانيين ببغداد، وقد أجهدني الضعف، وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه، وقعدت في جانب منه. وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي، ومعه خبز رصافي وشواء، وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فيّ من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي، وقلت: ما هذا؟

إذ التفتَ العجمي فرآني، فقال: باسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم عليّ، فبادرت نفسي فخالفتها، وأقسم أيضاً فأجبته فأكلت.

فأخذ يسائلني: من أين أنت، وبمن تُعْرَف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان، فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، يعرف بأبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو، فاضطرب وتغيّر وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد، ونفدت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا ما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً، فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي.

فقلت له: وما ذاك؟ قال: أمك وجهت لكل معي ثمانية دنانير، فاشتريت منها هذا للاضطرار وأنا معتذر إليك.

فسكنته وطيّبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب فقبله وانصرف...»(١).

ويبدو أن والدته كانت ترسل له بعض النقود بين حين وآخر، فبعضها يصل إليه، وبعضها لا يصل، فبغداد مدينة كبيرة، وهو لم يكن قد عرف بعد.

---

(١) شذرات الذهب ٤/٢٠١ ـ ٢٠٢.

حياته العلمية:

بدأ الشيخ حياته العلمية بعد وصوله إلى بغداد سنة (٤٨٨هـ).

وبغداد يومئذ من أعظم مراكز العلم في ديار الإسلام، وكان فيها الصفوة من العلماء في كل فن.

وأخذ يسأل عن مدارس الفقهاء وحلقات المحدثين.. وكان يقضي وقته متعلماً في حلقات العلم..

واستمرت حياة التلقي عنده ما يزيد عن ثلاثين عاماً، أتقن فيها كثيراً من العلوم والفنون.. بما في ذلك علم السلوك والتصوف..

قال ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»: «كان يتكلم في ثلاثة عشر علماً، كانوا يقرؤون عليه درساً في التفسير، ودرساً في الحديث، ودرساً في المذهب، وكان يفتي على مذهبي الشافعي وأحمد بن حنبل، ودرساً في الخلاف، ودرساً في الأصول وفي النحو، وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر»(١).

وكان يحضر دروسه كبار العلماء، وتوجد في درسه

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للندوي، ص٢٥٨.

مئات المحابر، الأمر الذي يذكرنا بدروس الإمام الغزالي.

وإن سعة علمه كانت من البواعث الرئيسة لكبار العلماء على حضور دروسه.

قال الحافظ أبو العباس أحمد البندنيجي: حضرت أنا والشيخ جمال الدين ابن الجوزي رحمه الله تعالى مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه.. فقرأ القارئ آية، فذكر الشيخ في تفسيرها وجهاً..

فقلت للشيخ جمال الدين: تعلم هذا الوجه؟

قال: نعم.

ثم ذكر وجهاً آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم.

فذكر فيها الشيخ أحد عشر وجهاً، وأنا أقول له: أتعلم هذا الوجه؟ وهو يقول: نعم.

ثم ذكر الشيخ فيها وجهاً آخر. فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟

قال: لا.

حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجهاً، يعزو كل وجه إلى قائله، والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا

الوجه، واشتد عجبه من سعة علم الشيخ ﵁[1].

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى:

كان الشيخ عبد القادر.. شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته.. وتتلمذ له خلق لا يحصون عدداً.. وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء ﵃ بالتبجيل والإعظام والرجوع إلى قوله، والمصير إلى حكمه..[2].

ومما يدل على مكانته العلمية، ما نقله ابنه الشيخ عبد الرزاق حيث قال:

«جاءت فتوى من بلاد العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراق، فلم يظهر لأحد منهم فيها جواب شاف. وصورتها:

ما يقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بد له أن يعبد الله عزّ وجلّ عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها، فما يفعل من العبادات، أفتونا مأجورين.

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني للدكتور عبد الرزاق الكيلاني، ص١٧٠، نقلاً عن «قلائد الجواهر».

(٢) المصدر قبله، ص٢٩٩.

فأُتي بها إلى والدي فكتب على الفور: يأتي مكة المكرمة ويُخلى له المطاف ويطوف أسبوعاً[1] وتنحل يمينه.

فما بات المستفتي ببغداد تلك الليلة وتوجه إلى مكة شرفها الله[2].

مجالس وعظه وتدريسه:

كان شيخه القاضي أبو سعيد المخرمي الحنبلي قد بنى لنفسه مدرسة بباب الأزج في بغداد، وكان يدرس فيها الفقه على المذهب الحنبلي. وقد انقطع إليه الشيخ عبد القادر في سنوات دراسته الأخيرة من سنة (٥٢١هـ) وكان يساعد شيخه في التدريس إلى أن توفي الشيخ ﵀.

ولما توفي الشيخ أبو سعيد لم يجد تلاميذه أفضل من الشيخ عبد القادر يفوضون مدرسته إليه، فجلس فيها للتدريس والفتوى والوعظ والإرشاد، ولكنها ضاقت بالناس فخرج إلى المصلى، خارج سور بغداد ليلقي دروسه هناك.

---

(١) أي سبعة أشواط.

(٢) الشيخ عبد القادر الجيلاني للدكتور عبد الرزاق الكيلاني، ص١٧٠، عن «قلائد الجواهر»، ص٣٨.

ثم اشترى أهل الخير مدرسة المخرمي من ورثته ووسعوها وبنوها من جديد على شكل مدرسة للعلم، ورباط للمريدين والتلاميذ، وصارت تدعى بمدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وهي لا تزال موجودة حتى الآن في بغداد، وتدعى المدرسة القادرية[١].

وقد اشتهر الشيخ بمجالس وعظه التي كان يقصدها الآلاف، وقد كان له التأثير الكبير في إصلاح المجتمع، فقد أسلم على يده أكثر من خمسة آلاف، وتاب على يده أكثر من عشرين ألفاً[٢].

وكان للشيخ نوعان من الدروس:

دروس منتظمة تتناول شتى فنون المعرفة إضافة إلى التربية الروحية المنتظمة، وهو ما كان يقوم به في المدرسة المذكورة.

ودروس الوعظ والدعوة للجماهير، وكان يلقيها في ثلاثة أوقات بانتظام: صباح يوم الجمعة، ومساء يوم الثلاثاء، ومكان ذلك في المدرسة المذكورة، وصباح يوم الأحد في الرباط.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٢) الفتح الرباني، ص١٤٥.

بدأت دروسه بالرجلين والثلاثة، ثم تكاثر الناس وتزاحموا في درسه، حتى اضطره ذلك إلى الخروج من المدرسة، وإلقاء درسه بالرباط بجانب سور بغداد.

وتقول بعض الروايات: إن مجلسه كان يضم سبعين ألفاً، وهذه الرواية وإن كانت لا تخلو من مبالغة فإنها تدل على كثرة القاصدين لدرس الشيخ.

وقد يسأل سائل: لماذا اتجه الشيخ إلى الوعظ، حتى اشتهر به وعرف؟

إن دراسة عصر الشيخ يمكن أن تعطي الجواب على هذا السؤال..

فقد كثر في زمنه الفقهاء والعلماء الذين يلقون دروسهم المتخصصة على طلابها، ولم تكن بغداد يومئذ ينقصها هذا الصنف..

وقد كثر الفساد في المجتمع واتسعت دائرته، فكان عامة الناس بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويردهم إلى دائرة الشريعة، ويعلمهم ما هم بحاجة إليه.. وهي القضية التي تنبّه إليها الشيخ، ورآها وقد احتلت الدرجة الأولى في سلم الأولويات فكانت دروس وعظه تلبية لحاجة ملحة.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في وصف الشيخ ووصف مجلسه:

«كان صاحب نفس زكية، وهمة قوية مؤثرة، وعلى جانب عظيم من الزهد والقناعة والعزوف عن الشهوات.

يجد ضعاف الإيمان في مجالسه قوة اليقين وحرارة الإيمان.

ويجد أهل الشك والارتياب السكينة والإذعان.

ويجد أصحاب النفوس القلقة والقلوب الجريحة المنكسرة: الهدوء والعزاء والسلوان.

ويجد هواة الحقائق والمعارف وأصحاب الدراسات: العلوم الدقيقة، والنكت اللطيفة.

ويجد أصحاب البطالة والعطلة، وأصحاب القلوب الخامدة ما يملؤهم حماسة وإيماناً، وما يحفزهم إلى العمل والجهاد.

ويجد عباد الملذات والشهوات، والمترفون في الحياة، الذين تجرؤوا على المعاصي والمحارم: ما يبعث فيهم الإقلاع والندامة والتوبة والإنابة.

وبالجملة: يجد كل أحد في مجالسه: غناءه ودواءه وغذاءه وشفاءه، ويقف كمنارة عالية من الإيمان والعلم في بحر الظلمات والجاهلية يأوي إليها الغرقى ويهتدي

بها الحائرون...»[١].

هذا النوع من الدروس، الذي يلبي حاجة كل طالب، هو ما يفسر لنا كثرة القاصدين له حتى بلغ عشرات الآلاف.

على أن الشيخ ـ مع ذلك ـ لم يترك دروس العلم في مدرسته كما رأينا، ولكنها كانت ممزوجة بالتربية الروحية والتطبيق العملي للمعلومات.

وقد آتت هذه التربية ثمارها فكان لتلاميذ الشيخ أثرهم الكبير في الحياة الاجتماعية في شتى أنحاء العالم الإسلامي[٢].

آثار الشيخ ومؤلفاته:

لم يكن وقت الشيخ المليء بالتعليم والوعظ والإرشاد ليسمح له بالكتابة والتأليف؛ بل ربما لم يكن حريصاً على ذلك، فالمؤلفات الإسلامية في كل فن تستعصي على الإحصاء..

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي، ص٢٥١.

(٢) انظر في ذلك ـ إن رغبت ـ كتاب «هكذا ظهر جيل صلاح الدين» للدكتور ماجد عرسان كيلاني، فهو من الكتب القيمة التي بُذِلَ فيها جهد مشكور.

فلم تكن المكتبة بحاجة إلى كتاب يضاف إليها، ولكن المجتمع الإسلامي كان بحاجة إلى داعية مصلح، يقوِّم ما أصابه من خلل واعوجاج.

وهذا ما تنبّه إليه الشيخ، وهو ما يفسّر قلَّة ما كتبه.

وقد نُسبت إليه كتب وأوراد، والمتفق على صحة نسبته إليه منها ثلاثة هي: «الغنية»، و«الفتح الرباني»، و«فتوح الغيب».

١ ـ أما كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق» فهو كتاب يذكِّرنا بكتاب «إحياء علوم الدين» للإمامِ الغزالي، ولا شك بأن الشيخ كان متأثراً به موضوعاً وأسلوباً، حيث جمع فيه بين الفقه والأخلاق وقواعد السلوك.

فقد تحدث أولاً عن العبادات، ثم فصّل القول في ذكر الآداب الإسلامية، ثم تحدث عن آداب الدعاء وفضائل الأيام والشهور، ثم حثّ على النوافل ثم بيَّنَ آداب المريدين والمجاهدين، والتوكل وحُسْن الخلق.

٢ ـ وأما كتاب «الفتح الرباني والفيض الرحماني» فهو عبارة عن دروس في الوعظ كان يلقيها الشيخ، فجمعت كل مجلس على انفراد، حيث بلغت (٦٢) مجلساً، كان المجلس الأول منها في ٣ شوال سنة (٥٤٥هـ) والمجلس الأخير في يوم الجمعة سلخ رجب

سنة (٥٤٦هـ) وفي آخر الكتاب قرابة (٩٠ صفحة) جاءت على نمط ما جاء في تلك المجالس وبعضها أجوبة على أسئلة.

٣ ـ وأما كتاب «فتوح الغيب» فهو يتألف من (٧٨) مقالة في السلوك والأخلاق وغير ذلك، وهو شبيه في موضوعاته وأسلوبه بكتاب «الفتح الرباني». ويقع في (٢١٢) صفحة، وينتهي الكتاب عند الصفحة (١٢٩). وأُلحقت به بعد ذلك قصائد نسبت إلى الشيخ فيها انحراف وضلال وشرك بعض الأحيان، ولا يشك أحد في عدم صحة نسبتها إلى الشيخ، وذلك لأن شيخ الإسلام ابن تيمية قد أثنى على الكتاب، ولم يكن ليفعل وفيه هذه القصائد، الأمر الذي يؤكد عدم وجودها في الأصل كما يقول الدكتور سعيد بن مسفر القحطاني في كتابه «الشيخ عبد القادر الجيلاني».

وفاة الشيخ:

توفي الشيخ بعد مرض قصير، لم يطل، حتى قيل إنه دام يوماً وليلة، وكان ذلك ليلة السبت عاشر ربيع الآخر، سنة (٥٦١هـ).

وكانت مدة حياته تسعين عاماً، قضاها بالعمل الخيِّرِ وتعليمِ الناس وإرشادهم.. رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقبل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب الوصية، فقال له:

«عليك بتقوى الله عزّ وجلّ وطاعته، ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وَكِلِ الحوائج كلها إلى الله عزّ وجلّ، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عزّ وجلّ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه. وعليك بالتوحيد، التوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد».

وقال ولده موسى: لما أتته سكرة الموت كان يقول:

«استعنت بلا إله إلا الله الحي القيوم الذي لا يموت ولا يخشى الموت، سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله».. رحمه الله تعالى..[1].

(١) الفتح الرباني، ص٣٧٣ ـ ٣٧٤.

شهادات

ولإعطاء تصور أفضل عن حياة هذا العَلَم، يحسن بنا أن ننقل بعض ما قيل في حقه من قبل العلماء الذين عايشوه، أو الذين جاؤوا من بعده:

قال الشيخ موفق الدين ابن قدامة المقدسي، صاحب «المغني»:

«دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة، فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علماً وعملاً وحالاً واستفتاءً، كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره، من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم، والصبر على المشتغلين وسعة الصدر.. وما رأيت أحداً يعظّمه الناس من أجل الدين أكثر منه».

وقال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني:

«كان الشيخ عبد القادر متمسكاً بقوانين الشريعة، يدعو إليها وينفر عن مخالفتها، ويشغل الناس فيها، مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة..».

وقال الإمام ابن رجب:

«شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ.. محيي الدين، ظهر للناس، وحصل له القبول التام، وانتصر أهل السنّة الشريفة بظهوره، وانخذل أهل البدع والأهواء، واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته، وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار، وهابه الخلفاء والوزراء فمن دونهم».

وقال الحافظ ابن كثير:

«.. كان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق، وكان له سمت حسن، وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدس الله سره»[1].

وقال الحافظ الذهبي:

«الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام علم الأولياء...»[2].

وأما الإمام ابن تيمية:

فإنه يذكره بكثير من الاحترام والتقدير، فتارة يصفه

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للدكتور عبد الرزاق الكيلاني، ص٢٩٥، نقلاً عن «قلائد الجواهر» وغيره.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٣٩.

بأنه من الشيوخ الكبار فيقول: «وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره..»، وتارة يقول: «الشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم..»[1].

وقال:

«وأما أئمة الصوفية والمشايخ المشهورون: مثل الجنيد وأتباعه، ومثل الشيخ عبد القادر وأمثاله، فهؤلاء من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي..»[2].

ويلاحظ على الإمام ابن تيمية أنه إذا مر ذكر الشيخ، أتبع ذلك بقوله: «قدس الله روحه»[3].

وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي:

«لقد ظهر الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، وتسلَّم الزعامة الدينية، وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله تعالى، والتفَّ حوله العالم الإسلامي، وأثر فيه تأثيراً لم يؤثر مثله عالم أو مصلح في مدة طويلة»[4].

(١) الفتاوى ١٠/٤٦٣، ٤٨٨.
(٢) الفتاوى ٨/٣٦٩.
(٣) الفتاوى ٨/٣٠٦، ١٠/٤٥٨، ١٠/٤٧٠.
(٤) رجال الفكر والدعوة، ص٢٥٢.

محاور الوعظ عند الشيخ عبد القادر

كانت دروس وعظ الشيخ مثمرة ناجحة، فقد تاب فيها كثيرون، وأسلم فيها كثيرون.

وهذا النجاح ـ فيما أرى ـ يرجع إلى عوامل كثيرة في مقدمتها أمران:

الأول: معرفة الشيخ بواقعه الذي يعالجه.

والثاني: أسلوب الخطاب الذي استعمله.

أما الأول: فإنا نتعرف عليه من الأوصاف الدقيقة التي تبين حال المجتمع الذي يعالج الشيخ أمراضه ومن أمثلة ذلك:

ـ «قد عم الرياء والنفاق والظلم، وكثرة الشبهة والحرام، قد كثر كفران نعم الحق عزّ وجلّ، والاستعانة بها على الفسق والفجور».

ـ «لقد كثر العاجز في بيته، المتقي في دكانه، الزنديق في شرابه، الصدّيق على كرسيه»(١).

---

(١) الفتح الرباني، ص١٧.

إنّ تشخيص الداء أمر مهم لوصف الدواء.

وأما الثاني: وهو أسلوب الخطاب، فإن الشيخ بالرغم من علمه بدقائق واقع الناس، فإنه لم يكن يواجههم بما ينفرهم، وإنما كان خطابه عاماً، لا يخاطب شخصاً بعينه ولا فئة بعينها، متبعاً في ذلك السنة في قوله ﷺ: (ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..).

فقد كان يخاطب الناس فيقول: يا قوم، يا غلام، يا مسكين.

ويعلم أن مواجهة كل فرد بانحرافه يؤدي إلى نفرة الناس، ويقرر ذلك بقوله: «لو كشفت بعض ما عندي كان ذلك سبب الفراق بيني وبينكم»(١).

ولا يكتفي بهذا بل هو يضحك في وجه المذنبين، حتى لا ينفرهم، وحتى يتيح لهم الجلوس إليه، ويقول في ذلك: «لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف.. العارف يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى»(٢).

---

(١) الفتح الرباني، ص١٧.

(٢) الفتح الرباني، ص٢٢٤.

إنه الرجل الخبير بأمراض المجتمع، الخبير بأمراض النفس، العليم بطرق إنقاذ الغرقى.

فلنتعرف على المحاور التي سلكها في علاج تلك الأمراض..

ومن أهم تلك المحاور:

١ ـ تصحيح العقيدة:

إنّ قضية «التوحيد» هي القضية الأساسية، التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية. وحتى يتم التوحيد لا بد من التخلص من الشرك.

والشرك ـ كما يقول الشيخ ـ شركان:

شرك في الظاهر: وهو عبادة الأصنام.

وشرك في الباطن: وهو الاتكال على الخلق، ورؤيتهم في الضر والنفع[١].

والمسلم لا يكون موحداً حتى يتخلص من الشرك الظاهر، ولكنه قد لا يحسن التخلص من الشرك الباطن، ولذا انصبّ اهتمام الشيخ على بيان ذلك، وكثرتْ معالجته لهذا الموضوع وبيان أخطاره. ومن ذلك قوله:

(١) الفتح الرباني، ص١٤٤.

«يا غلام، ما أنت على شيء، الإسلام ما صح لك، تقول: «لا إلٰه إلا الله» وتكذب، في قلبك جماعة من الآلهة: خوفك من سلطانك، ووالي محلتك، آلهة، اعتمادك على كسبك.. وقوتك وبطشك آلهة، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة»[١].

وقال:

«كيف تقول: «لا إلٰه إلا الله» وفي قلبك كم إلٰه؟ كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب»[٢].

وقال:

«دع عنك الشرك بالخلق، ووحد الحق عزّ وجلّ، هو خالق الأشياء جميعها، يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل..»[٣].

وهكذا يوضح فكرة الشرك الباطن، حتى يبتعد عنها المسلم، ويكون موحداً ظاهراً وباطناً.

٢ ـ التزام الكتاب والسنّة:

قامت الشريعة الإسلامية على الكتاب والسنّة، ولا بد

(١) الفتح الرباني، ص٧٤.

(٢) الفتح الرباني، ص١٥٥.

(٣) الفتح الرباني، ص١٢.

أن يكون عمل المسلم منضبطاً معهما حتى يكون مقبولاً.

ولهذا كان تأكيد الشيخ على تحكيم هذا الضابط والالتزام به كبيراً، وقلَّ مجلس من مجالسه لم يذكر فيه هذا الأمر ويذكر به.

ومن أقواله في ذلك:

«كل من لم يتبع النبي ﷺ ويأخذ شريعته في يد والكتاب المنزل عليه في اليد الأخرى، ولا يصل في طريقه إلى الله عزّ وجلّ يَهلك ويُهلك، ويَضل ويُضل، هما دليلان إلى الحق عزّ وجلّ، القرآن دليلك إلى الحق عزّ وجلّ، والسنّة دليلك إلى الرسول ﷺ»[(١)].

ولما كان بعض المتصوفة المنحرفين يدَّعون العمل بالحقيقة والقول بها بعيداً عن الالتزام بالشرع، قرعهم بقوله:

«كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عزّ وجلّ بجناحي الكتاب والسنّة»[(٢)].

وكثيراً ما كرر الجملة الأولى من هذه الفقرة بياناً

(١) الفتح الرباني، ص١١٧.
(٢) الفتح الرباني، ص١٧٩.

لانحراف الذين يتعدون عن الشريعة أياً كان شأنهم.

ومن أقواله: «من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله، فهو هالك مع الهالكين»[(١)].

ومن لزم السنّة فطريقه الاتباع ولذلك يقول:

«عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح، امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد... يسعكم ما وسع من كان قبلكم»[(٢)].

٣ ـ نقد العلماء:

يوجد في كل زمن من العلماء من لا يتفق سلوكه مع العلم الذي يحمله، ويرى الشيخ في هذا النمط من العلماء خطراً داهماً على عامة الناس، الذين ينظرون إلى سلوك هؤلاء العلماء قبل النظر والاستماع إلى أقوالهم.

ولهذا اشتدت وطأة هجوم الشيخ عليهم، وكانت لغته قاسية معهم، لأنهم يقولون ما لا يفعلون. ومن أقواله في ذلك:

(١) الفتح الرباني، ص١٦١.
(٢) الفتح الرباني، ص٤٧.

«يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عزّ وجلّ، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر، إلى متى هذا النفاق يا علماء يا زهاد؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها..»[١].

ويخاطب الناس ويطلب منهم ألا يستمعوا من هؤلاء العلماء فيقول:

«لا تسمعوا من هؤلاء الذين يفرِّحون نفوسكم، يذلون للملوك، ويصيرون بين أيديهم كالذر، لا يأمرونهم بأمره، ولا ينهونهم عن نهيه، وإن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً، طهر الله منهم الأرض ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه»[٢].

ويطلب من طلبة العلم عدم الاغترار بهؤلاء العلماء فيقول:

«يا غلام، لا تغتر بهؤلاء العلماء الجهال بالله عزّ وجلّ، كل علمهم عليهم لا لهم، هم علماء بحكم الله عزّ وجلّ، جهال بالله عزّ وجلّ، يأمرون الناس بأمر ولا يمتثلونه، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون

(١) الفتح الرباني، ص٢١٦.
(٢) الفتح الرباني، ص٣٠٦.

عنه، يدعون إلى الحق عزّ وجلّ وهم يفرون منه..»[١].

إنه لا بد للعلم من العمل، ولذلك يوجه النصيحة في هذا الشأن فيقول:

«يا غلام، علمك يناديك: أنا حجة عليك إذ لم تعمل بي، وحجة لك إن عملت بي؛ اسمعه بأذن قلبك وسرك، واقبل قوله فإنك تنتفع به؛ العمل بالعلم يقربك إلى العالم المنزل للعلم، لا تصح متابعتك للرسول ﷺ حتى تعمل بما قال»[٢].

٤ ـ إصلاح التصوف والزهد:

يرى الشيخ أن مفهوم التصوف قد انحرف عن معناه، وأصبحت المظاهر تشغل أصحابه بعد أن كان هدفه صفاء الباطن. ولذا فهو يتوجه إليهم بالنصيحة لتصحيح المسار فيقول:

«يا من قد لبس الصوف، أَلبسِ الصوف لسرِّك ثم لقلبك، ثم لنفسك ثم لبدنك. بداية الزهد من هناك، لا من الظاهر إلى الباطن، إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى

(١) الفتح الرباني، ص٥٧.
(٢) الفتح الرباني، ص٢٣.

القلب والنفس والجوارح، والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك، أول ما يعمر داخل الدار، فإذا كملت عمارتها، اخرج إلى عمارة الباب، لا كان ظاهر بلا باطن..»[1].

وقال:

«يا غلام، صفِّ قلبك بأكل الحلال وقد عرفت ربك عزّ وجلّ، صفِّ لقمتك وخرقتك وقلبك وقد صرت صافياً، التصوف مشتق من الصفاء، يا من لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عزّ وجلّ، وهذا شيء لا يجيء بتغيّر الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عزّ وجلّ، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب..»[2].

ويتجه إلى الذين ادعوا الزهد وتركوا العمل فيقول لهم:

(١) الفتح الرباني، ص١١١.

(٢) الفتح الرباني، ص١١٥.

«يا طالب الدنيا بنفاقه، افتح يدك، فما ترى فيها **شيئاً**، ويلك، زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال **الناس** بدِينِك، الكسب صنعة الأنبياء جميعهم، ما منهم **إلا** من كان له صنعة..»[1].

ويلوم الزهاد على جهلهم ويطلب منهم أن يتعلموا **فيقول**:

«يا من اعتزل بزهده مع جهله، تقدم واسمع ما **أقول**: يا زهاد الأرض، تقدموا، خرِّبوا صوامعكم واقتربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل.. تقدموا والقطوا ثمار الحكم رحمكم الله..»[2].

إنها صرخات في سبيل إصلاح مدَّعي التصوف والزهد.

٥ ـ تصحيح مفهوم التوكل:

ظن بعضهم أن التوكل ينافي العمل، وقد عمل الشيخ في مجالسه على تصحيح هذا المفهوم وبيان أن التوكل لا ينافي العمل، ومن قوله في ذلك:

«اشتر [المر] والزنبيل واقعد على باب العمل، فإن

(١) الفتح الرباني، ص١٨٧.

(٢) الفتح الرباني، ص٩٥.

قُدِّر عملك فسوف تعمل، أعطِ السبب حقه، وتوكل واقعد على باب العمل. . . »[1].

وقال:

«خذ المر والزنبيل واقعد على باب العمل، حتى إذا طلبت تكون قريباً من المستعمل، ولا تقعد على فراشك وتحت لحافك، من وراء أغلاق ثم تطلب العمل. . »[2].

ويبين أن ترك الكسب والاعتماد على ما في أيدي الناس عقوبة من الله تعالى فيقول:

«الأنبياء جمعوا بين الكسب والتوكل. . تَرْكُ الكسب والكدية من الناس، عقوبة من الله عزّ وجلّ للعبد»[3].

٦ ـ إنصاف الفقراء:

كان أمر إنصاف الفقراء واحداً من المحاور التي أخذت نصيبها من مجالس الشيخ، فهو يرى أن الفقير أخو الغني بالأخوة التي عقدها الله بين المؤمنين،

(١) الفتح الرباني، ص٢١١.

(٢) الفتح الرباني، ص٢٢٨.

(٣) الفتح الرباني، ص١٢٦.

والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن هذا المنطلق يخاطب الغني فيقول:

«إذا أحببت لنفسك أطايب الأطعمة، وأحسن الكسوة، وأطيب المنازل. . وأحببت لأخيك المسلم بالضد من ذلك فقد كذبت في دعواك كمال الإيمان».

ثم يقول: «يا قليل التدبير، لك جار فقير، ولك أهل فقراء، ولك مال عليه زكاة، ومعك قدر يزيد على قدر حاجتك إليه، فمنعك من العطاء لهم، هو الرضا بما هم فيه من الفقر. . »[1].

ويرى الشيخ أن السائل هدية من الله عزّ وجلّ، فكيف يرد القادر على العطاء هذه الهدية، فيقول:

«واسوا الفقراء بشيء من أموالكم، لا تردوا سائلاً وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً، وافقوا الحق عزّ وجلّ في حبه العطاء، واشكروه كيف أهَّلكم وأقدركم على العطاء، ويحك، إذا كان السائل هدية الله عزّ وجلّ، وأنت قادر على إعطائه، فكيف ترد الهدية على مهديها؟!»[2].

بهذه المعاني الرفيعة كان يذكِّر الأغنياء بواجبهم. .

(١) الفتح الرباني، ص٨٥.

(٢) الفتح الرباني، ص١٨.

٧ ـ الإخلاص:

إن الإخلاص هو المدار الذي يتركز عليه قبول العمل. وقَلَّ مجلس للشيخ إلا وفيه نصيب للحديث عن هذا الموضوع.

ومن أقواله في ذلك:

«عليك بالإخلاص في الأعمال، ارفع بصرك عن عملك وطلب العوض عليه، اعمل لوجه الله عزّ وجلّ، كن من الذين يريدون وجهه»(١).

والنية هي المؤشر على الإخلاص، ولهذا ينصح الشيخ فيقول:

«يا غلام، إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة، وإذا سكت، فاسكت بنية صالحة، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له»(٢).

ويرشد إلى علامة الإخلاص فيقول:

«علامة إخلاصك: أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم»(٣).

والإخلاص لا يكون مع العجب؛ ومن قوله في ذلك

(١) الفتح الرباني، ص٨٢.
(٢) الفتح الرباني، ص١١٩.
(٣) الفتح الرباني، ص١٩٠.

«لا تعجبن بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه»(١).

وقال:

«يا معجبين بأعمالكم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم ولا صمتم ولا صبرتم»(٢).

٨ ـ ذم الدنيا:

يلاحظ عند النظر في مواعظ الشيخ، كثرة «ذم الدنيا». ولا بد من وقفة عند هذا الأمر، لتحديد المقصود بالدنيا التي يذمها.

والشيخ ﷺ لم يترك لنا ذلك، بل بيَّن مراده بكلام واضح لا لبس فيه، حتى لا يكون ظاهر كلامه حجة للكسالى والبطالين والخاملين فقال:

«ليس من الدنيا ما لا بد منه. ليس من الدنيا: بيت يكنك، ولباس يسترك، وخبز يشبعك، وزوجة تسكن إليها.

حياة الدنيا: نفسك وهواك وطبعك. هذه الدنيا.

الحياة الدنيا: الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق»(٣).

(١) الفتح الرباني، ص٢٠١.
(٢) الفتح الرباني، ص١٧٩.
(٣) الفتح الرباني، ص٣٤٤.

إنه كلام واضح لا لبس فيه، لا بد للإنسان من السعي في تأمين ما يحتاج لنفسه ولمن يعول، من طعام وشراب ولباس ومسكن، فهي حاجات ضرورية لا تقوم الحياة إلا بها، وهي لا تدخل في ذم الدنيا عندما يذمها.

وإنما مراده بالدنيا، أمران:

الأول مادي: وهو اتباع الشهوات والسعي وراء الملذات ومراد النفس والشيطان.

والثاني عقدي روحي: وهو صرف الهمة والقصد إلى الخلق والإقبال عليهم، وأن يكون مراده من أعماله أن يراه الناس.. فهذا من الدنيا..

وهذا أمر ينبغي أن يكون واضحاً لقارئ مواعظ الشيخ، حتى لا يكون ذمه للدنيا باعثاً على ترك العمل وترك القيام بالمسؤوليات المناطة بالإنسان تجاه نفسه وأسرته.. وهذا ما تؤكده أوامره ومواعظه المتكررة بالسعي وحمل أدوات العمل، والذهاب إلى حيث يجتمع العمال، ويسعى إليهم من يستأجرهم.

❊ ❊ ❊

نكتفي بهذا القدر من ذكر بعض المحاور في مواعظ الشيخ، وهناك محاور أخرى سيجدها القارئ عند وقوفه على هذه المواعظ.

مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني

هذه المواعظ

ترك الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ ثلاثة كتب، منها اثنان فيهما نماذج من مواعظه هما: الفتح الرباني، وفتوح الغيب.

أما الكتاب الأول: ففيه تسجيل لبعض مجالسه الوعظية، وهو يعطينا تصويراً وافياً لما كانت عليه هذه المجالس، ومن تناول الشيخ فيها لموضوعات متعددة مذكراً وناصحاً.

والمواعظ التي بين أيدينا هي فقرات منتقاة من هذه المجالس، تعالج الواحدة منها موضوعاً واحداً، أو تعرض فكرة واحدة، على نسق الطريقة المتبعة في هذه السلسلة.

وأما الكتاب الثاني: ففيه مقالات، شبيهة من حيث الموضوعات والأسلوب بالمجالس السابقة، وإن كان كل مقال منها ـ في الغالب ـ يناقش موضوعاً واحداً.

وقد تم ـ كذلك ـ اختيار فقرات من هذه المقالات،

لتشكل الباقة الثانية من هذه المواعظ.

فهما باقتان: الأولى من الكتاب الأول، والثانية من الثاني.

وقد وضعت مرجع كل موعظة ـ من حيث بيان الصفحة ـ في نهايتها، اختصاراً لكثرة الحواشي.

أما الكتاب الأول: فهو من نشر «دار الكتاب العربي» في بيروت، عام ١٤٠٠هـ.

وأما الكتاب الثاني، فهو من نشر «دار الألباب» بدمشق.

مَكانة المَـواعِظ

داومْ على سماع المواعظ، فإن القلب إذا غاب عنها عمي.

❖ ❖ ❖

لا تستهينوا بكلمات الحكماء العلماء، فإنها ثمرة وحي الله عزّ وجلّ.

الشيخ الجيلاني

الباقة الأولى

مِن كتابِ

الفتح الربّاني وَالفيض الرحماني

التسليم لله تعالى

قال أبو محمد:

الاعتراض على الحق عزّ وجلّ عند نزول الأقدار، موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص.

والقلب المؤمن لا يعرف «لِمَ؟» و«كيف؟» لا يعرف.
[٩ ـ ١٠]

صلاح القلب

قال أبو محمد:

أصلحوا قلوبكم، فإنها إذا صلحت صلح لكم سائر أحوالكم، ولهذا قال النبي ﷺ: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[١].

صلاح القلب بالتقوى، والتوكل على الله عزّ وجلّ، والتوحيد له، والإخلاص في الأعمال، وفساده بعدم ذلك. [١٠ ـ ٢١]

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

همّ النفس وهم القلب

قال أبو محمد:

لا يكن همّك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس، وما تسكن وما تجمع..

كل هذا همُّ النفس والطبع.

فأين همُّ القلب والسرِّ؟ وهو طلب الحق عزّ وجلّ.

همُّك ما أهمَّك!

فليكن همُّك ربك عزّ وجلّ وما عنده.

الدنيا لها بدل، وهو الآخرة.

والخلق لهم بدل، وهو الخالق عزّ وجلّ.

كلما تركت شيئاً من هذا العاجل، أحدث عوضه وخيراً منه في الآجل.

قدِّر: أن قد بقي من عمرك هذا اليوم فحسب.

تهيأ للآخرة، تهيأ لمجيء ملك الموت. [١٥ ـ ١٦]

تحقيق «لا إله إلا الله»

قال أبو محمد:

لا تفرح بجميع ما أنت فيه، فهو شيء زائل عن قريب. قال الله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ [الأنعام: ٤٤].

ما خلقتَ للبقاء في الدنيا والتمتع فيها، فغيِّرْ ما أنت فيه من مكاره الحق عزّ وجلّ.

قد قنعتَ من طاعة الله عزّ وجلّ بقول: (لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله).

هذا لا ينفعك حتى تضيف إليه شيئاً آخر.

الإيمان: قول وعمل.

لا يقبل منك، ولا ينفعك إذا أتيت بالمعاصي والزلات، ومخالفة الحق عزّ وجلّ، وأصررت على ذلك، وتركت الصلاة والصوم والصدقة وأفعال الخير.

أي شيء ينفعك الشهادتان!؟

إذا قلت: (لا إلٰه إلا الله) فقد ادعيت.

يقال: أيها القائل، ألك بينة؟

ما البينة؟

امتثال الأمر، والانتهاء عن النهي، والصبر على الآفات، والتسليم إلى القدر.

هذه بينة هذه الدعوى.

وإذا عملت هذه الأعمال، ما تقبل منك إلا بالإخلاص للحق عزّ وجلّ.

ولا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة. [١٧ ـ ١٨]

علامة الإخلاص

قال أبو محمد:

علامة إخلاصك: أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق، ولا إلى ذمهم، ولا تطمع فيما في أيديهم. [١٩٠]

مواساة الفقراء

قال أبو محمد:

واسوا الفقراء بشيء من أموالكم، لا تردوا سائلاً وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئاً، قليلاً كان أو كثيراً.

وافقوا الحق عزّ وجلّ في حبه العطاء.

واشكروه كيف أهَّلكم وأقدَرَكم على العطاء.

ويحك! إذا كان السائل هدية الله عزّ وجلّ(1)، وأنت قادر على إعطائه فكيف ترد الهدية على مهديها.

عندي تستمع وتبكي.

وإذا جاء الفقير، يقسو قلبك.

فدلَّ على أن سماعك وبكاءك ما كان خالصاً لله عزّ وجلّ. [١٨]

(١) كان زين العابدين رضي الله عنه إذا جاءه السائل يقول: أهلاً بمن يحمل زادنا إلى الآخرة.

الطريق الموصل

قال أبو محمد:

ذلَّ لله عزّ وجلّ.

وأنزل به حوائجك.

ولا تعدَّ لنفسك عملاً.

والْقَهُ على قدم الإفلاس.

أغلق أبواب الخلق، وافتح الباب بينك وبينه، واعترف بذنوبك، واعتذر إليه من تقصيرك. وتيقن أن لا ضارَّ ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلا هو.

فحينئذ يزول عمىٰ عينِ قلبك، ويحركُ البصر البصيرة. [١٨ - ١٩]

علاج العجب

قال أبو محمد:

لا تعجبن بشيء من أعمالك.

فإن العجب يفسد العمل ويهلكه.

من رأى توفيق الله عزّ وجلّ له، انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال. [٢٠١]

قرابة المودة

قال أبو محمد:

اهجر أقران السوء، واقطع المودة بينك وبينهم، وواصلها بينك وبين الصالحين.

اهجر القريب منك إذا كان من أقران السوء، وواصل البعيد منك إذا كان من أقران الخير.

كل من واددته صار بينك وبينه قرابة.

فانظر لمن توادد. [٢٥]

شمس التوحيد

قال أبو محمد:

لا تكن في أخذك للدنيا كحاطب ليل، ما يدري ما يقع بيده.

إني أراك في تصرفاتك كحاطب ليل، في ليلة ظلماء، لا قمر فيها، ولا ضوء معه، وهو في رملة كثيرة الدغل[1] والحشرات القاتلة، فيوشك أن يقتلك شيء منها.

(١) الدغل: الفساد، وأصله: الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه.

كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى.

فإن هذه الشمس تمنعك عن الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق. [٢٧]

نفاق

قال أبو محمد:

إذا كان التوحيد بباب الدار، والشرك داخل الدار، فهو النفاق بعينه.

ويحك! أنت لسانك يتقي، وقلبك يفجر.

لسانك يشكر، وقلبك يعترض.

ويحك! تدّعي أنك عبده، وتطيع سواه.

لو أنك عبده على الحقيقة، لعاديت فيه وواليت فيه.

[١١ ـ ١٢]

باب الحياة

قال أبو محمد:

انتهزوا واغتنموا باب الحياة ما دام مفتوحاً، عن قريب يغلق عنكم.

اغتنموا أفعال الخير ما دمتم قادرين عليها.

اغتنموا باب التوبة، وادخلوا فيه ما دام مفتوحاً لكم.

اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكم.

اغتنموا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين، فهو مفتوح لكم. [٢٨]

فقه اللسان وعمل القلب

قال أبو محمد:

فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة.

السير سير القلب، والعمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح، والتواضع لله عزّ وجلّ ولعباده.

من جعل لنفسه وزناً فلا وزن له.

من أظهر أعماله للخلق فلا عمل له.

الأعمال تكون في الخلوات، لا تظهرْ في الجلوات سوى الفرائض التي لا بد من إظهارها. [٤١]

خزائنه تعالى

قال أبو محمد:

دع عنك الشرك بالخلق، ووحّد الحق عزّ وجلّ.

هو خالق الأشياء جميعها.

يا طالب الأشياء من غيره، ما أنت عاقل!!

هل شيء ليس هو في خزائن الله عزّ وجلّ.

قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]. [١٢]

بناء الباطن أولاً

قال أبو محمد:

المرائي ثوبه نظيف وقلبه نجس، يزهد في المباحات ويأكل الحرام الصريح، يأكل بدينه ولا يتورع جملة.

كل زهده وطاعته على ظاهره.

ظاهره عامر، وباطنه خراب.

ويلك! طاعة الله عزّ وجلّ بالقلب لا بالقالب.

أنت لسانك ورع، وقلبك فاجر.

لسانك يحمد الله عزّ وجلّ، وقلبك يعترض عليه.

ظاهرك مسلم، وباطنك كافر.

ظاهرك موحد، وباطنك مشرك.

زهدك على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك

خراب، كبياض على بيت الماء[١]، وكقفل على مزبلة.

إذا كنت هكذا خيم الشيطان على قلبك وجعله مسكناً له.

المؤمن يبتدئ بعمارة باطنه، ثم بعمارة ظاهره، كالذي يعمل داراً ينفق على الداخل منها مبالغ من المال، وبابها خراب، فإذا أكمل عمارتها بعد ذلك يعمل بابها.

هكذا البداية بالله عزّ وجلّ ورضاه، ثم الالتفات إلى الخلق بإذنه.

البداية بتحصيل الآخرة، ثم تتناول الأقسام[٢] من الدنيا. [٤٤ ـ ٤٥]

كيف تتلقى العلم

قال أبو محمد:

السماع ـ عندي في الخير ـ أولاً بالسر، ثم بالقلب، ثم بالجوارح.

إذا دخلت عليَّ، فادخل وقد عزلت علمك وعملك، ولسانك ونسبك وحسبك، مع نسيان أهلك ومالك.

---

(١) بيت الماء: أي بيت الخلاء.

(٢) الأقسام: جمع قسم، وهو نصيبك وما قُدِّر لك.

قف بين يدي عريان القلب عما سوى الحق عزّ وجلّ، حتى يكسوه بقربه وفضله.

إذا فعلت هذا ـ عند دخولك ـ صرت كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً[1]. [١٨]

تكلف العبادة

قال أبو محمد:

التقي لا يتكلف عبادة الحق عزّ وجلّ، لأنها صارت طبعه، فهو يعبد الله بظاهره وباطنه من غير تكلف منه.

وأما المنافق، فهو في كل أحواله يتكلف، ولا سيما في عبادة الحق عزّ وجلّ. يتكلفها ظاهراً ويتركها باطناً، لا يقدر أن يدخل مداخل المتقين. [٤٧]

التزام طريق السلف

قال أبو محمد:

عليكم بالاتباع من غير ابتداع.

عليكم بمذهب السلف الصالح.

---

(١) أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح مساء وهي ممتلئة البطون.

امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه[1] ولا تعطيل[2]، بل اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تشدد ولا تمشدق.

يسعكم ما وسع من كان قبلكم. [٤٧]

لماذا تحفظ؟

قال أبو محمد:

ويحك! تحفظ القرآن ولا تعمل به.

تحفظ سنة رسول الله ﷺ ولا تعمل بها.

فلأي شيء تفعل ذلك؟

تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف]. [٤٨]

---

(١) لا تشبيه: أي لا يشبه الله تعالى بمخلوقاته قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

(٢) التعطيل: هو نفي الصفات عن الله تعالى، والمعطلة: هم الذين ينفون عنه سبحانه ما وصف به نفسه (انظر فتاوى ابن تيمية ٥/٢٧).

لك قلب واحد

قال أبو محمد:

إلى متى عمارة الدنيا وتخريب الآخرة؟

إنما لكل واحد منكم قلب واحد، فكيف يحب به الدنيا والآخرة؟

كيف يكون فيه الحق والخلق؟

كيف يحصل هذا في حالة واحدة، في قلب واحد؟

هذا كذب.

فكل إناء ينضح بما فيه، أعمالك دلائل على اعتقادك، ظاهرك دليل على باطنك. [٤٩]

التواضع للأكابر

قال أبو محمد:

إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عزّ وجلّ.

فتواضع، فإن من تواضع رفعه الله عزّ وجلّ.

أحسن الأدب بين يدي من هو أكبر منك.

ليس المقصود كبر السن فحسب، بل حتى يضاف إلى كبر السن التقوى في امتثال الأمر والانتهاء عن النهي، وملازمة الكتاب والسنة.

وإلا فكم من شيخ لا يجوز احترامه ولا السلام عليه، وليس في رؤيته بركة.

الأكابر: المتقون الصالحون المتورعون العاملون بالعلم، المخلصون في العمل.

الأكابر: القلوب الصافية المعرضة عما سوى الله عزّ وجلّ.

الأكابر: القلوب العارفة بالله عزّ وجلّ، القريبة منه.

كلما كثر علم القلوب قربت من مولاها عزّ وجلّ. [٥٠]

نظرك إلى الناس

قال أبو محمد:

يا غلام، إن وجدت عندك تفرقة بين الغني والفقير عند إقبالهم عليك فلا فلاح لك.

أكرم الفقراء الصبَّر، وتَبَرَّك بهم وبلقائهم والجلوس معهم. [٦٩]

النصحية للقرآن

قال أبو محمد:

يا قوم! انصحوا القرآن بالعمل به، لا بالمجادلة فيه.

الاعتقاد كلمات يسيرة، والأعمال كثيرة.

عليكم بالإيمان به، صدقوا بقلوبكم، واعملوا بجوارحكم، اشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية. [٥٥]

العمل للدنيا

قال أبو محمد:

المؤمن يعمل لدنياه وآخرته، يعمل لدنياه بُلْغَتَه بقدر ما يحتاج إليه، يقنعه منها كزاد الراكب، لا يحصل منها الكثير.

الجاهل كل همه الدنيا.

والعارف كل همه الآخرة. [٦٣]

ما صح إسلامك

قال أبو محمد:

يا غلام! ما أنت على شيء، الإسلام ما صح لك.

الإسلام هو الأساس الذي ينبني على الشهادة، ما تمت لك.

تقول: «لا إله لا الله» وتكذب.

في قلبك جماعة من الآلهة!!

خوفك من سلطانك، ووالي محلتك، آلهة.

اعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة.

رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة.

كثير من الخلق متكلمون على هذه الأشياء بقلوبهم، ويظهرون أنهم متكلون على الحق عزّ وجلّ، قد صار ذكرهم للحق عادة بألسنتهم لا بقلوبهم. غداً تبين الفضائح وتظهر المخبآت. [٧٤]

وويل للعالم

قال أبو محمد:

ويل واحد للجاهل، وكيف لم يعلم؟

وويل لهذا العالم سبع مرات، لأنه علم، وما عمل، ارتفعت عنه بركة العلم، وبقيت عليه حجته.

تعلم، ثم اعمل.

فقد مثل الله عزّ وجلّ العالِم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَاْ﴾ [الجمعة: ٥].

الأسفار هي كتب العلم.

هل ينتفع الحمار بكتب العلم؟

ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب.

من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عزّ وجلّ، وطواعيته له.

يا مدعي العلم! أين بكاؤك من خوف الله عزّ وجلّ؟

أين حذرك وخوفك؟

أين اعترافك بذنوبك؟

أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عزّ وجلّ؟

أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟

أنت همتك القميص والعمامة والأكل والنكاح، والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم.

نحِّ همتك عن هذه الأشياء كلها، فإن كان لك فيها قسم، فإنه يجيئك في وقته وقلبك مستريح من تعب الانتظار. فما لك وهذا التعب في شيء مفروغ منه.

[٦٦ ـ ٦٧]

لا تغتر بالعارية

قال أبو محمد:

ويحك! تعمل عمل أهل النار، وترجو الجنان، فأنت طامع في غير موضع الطمع.

لا تغتر بالعارية وتظنها لك، عن قريب تؤخذ منك.

الحق عزّ وجلّ قد أعارك الحياة حتى تطيعه فيها، حسبتها لك وعملت فيها ما أردت.

وكذلك العافية عارية عندك.

وكذلك الغنى عارية عندك.

وكذلك الأمن والجاه وجميع ما عندك من النعم عارية عندك.

لا تفرط في هذه العواري، فإنك تُطالَب بها وتُسأَل عنها وعن كل شيء منها.

جميع ما عندكم من النعم، من الله عزّ وجلّ، فاستعينوا بها على الطاعة. [٧٧ ـ ٧٨]

لا تغتر بطاعتك

قال أبو محمد:

يا غلام! لا تغتر بطاعتك وتعجب بها، واسأل الحق سبحانه وتعالى قبولها.

واحذر وخف أن ينقلك إلى غيرها.

من عرف الله عزّ وجلّ لا يقف مع شيء، ولا يغتر بشيء، لا يأمن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه وحفظ ما بينه وبين الله عزّ وجلّ.

الباقة الثانية

من كتاب[٧]

فتوح الغيب

لا بد لكل مؤمن

قال أبو محمد:

لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء:

- أمر يمتثله.
- ونهي يجتنبه.
- وقدر يرضى به.

فأقل حالة المؤمنين لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة.

فينبغي أن يلزم همَّها قلبه، وليحدث بها نفسه، ويأخذ الجوارح بها في سائر أحواله. [٩]

كيفية النظر إلى الدنيا

قال أبو محمد:

إذا رأيت الدنيا بين يدي أربابها بزينتها، وأباطيلها وخداعها، وحصائدها وسمومها القتالة، مع لين مسِّ ظاهرها، وضراوة باطنها، وسرعة إهلاكها، وقتلها لمن مسَّها واغترَّ بها..